قصة سريالية

الوثيقة رقم واحد

للكاتب السويدي بيتر فايس

ترجمة عبد الديب

هؤلاء الذين كانوا هنا من البداية ، هم وحدهم الذين يستطيعون احتمال الحياة في هذه المدينة . حتى الفقر والالم يمكن احتمالهما اذا نشأ الانسان هنا . ترتفع الشمس الى عمد السماء وتدور النجوم في مدارها الطبيعي ، وهناك في اعماق المدينة يوجد الفوضى والضياع .

لا بد وان الخطأ مختبىء في مكان ما . اين هي جذور هذا التشوه؟ كيف يمكنهم جميعا الحياة هنا ؟هل يفعلون ذلك بمجرد العادة وبدون ان يتساءلوا ؟

انا احيا انا الاخر . انا اقفز ... اضرب جسدي ، وجلدي تحت الملابس ساخن من الضرب . اغرز اظافري في كف يدي فتخلف اثارا بيضاء متناثرة . اينما اكون استطيع ان أثبت وجودي لمن يجاورني بالصراخ في وجهه . ولكن يجب ان اقر بانني ، انا وجوعي ، كأننا غير موجودين. وقبل ان يبدأ جوعي فيالتعبير عن نفسه بالحركة لن يبدأ الناس في الاهتمام بي .

كيف استطيع ان اجعل نفسي مفهوما ، انا الذي قدمت الى هنا كخارج عن القانون ؟ انا لا اعرف ايا من مهنهم هنا . ولكن لي قدرة لماحة على الالتقاط . انا اعرف هذه المدينة ، اعرف تحديها ، وكأنني وانا مازلت بعيدا عنها ، قد استوعبت وتبينت كل شيء فيها .

كما انا ... تماما ، كما انا ، جئت الى هنا ، وهذا ماأريد ان اظهر به . انا اريد المستحيل ... اريد ان اغنى وان ارقص هنا .

بدأت أغني بصوت جوفه الجوع ، رقصت بحركات ارعشها الجوع. انا منتبه تماما واعرف اي تأثير اتركه . ولكنني مازلت اغني فليس هناك شيء اخر افعله . ارقص امام بيدر الطيور المستدير فتتطاير في اسراب وتتخابط بأجنحتها وتتصايح . ارقص في حركات ساكنة . صوتي يهمس بالايقاع . ارقص ، متوترا ، مستعدا للهرب .

تجمع النظارة . أمسكت فتاة صغيرة بطرف ثوبها واخذت ترقص معي . لو كان لي مسرح ربما استطاع الناس تقبيلي ، ولكنني اقف على الارض ، على نفس المستوى معهمجميعا ، ولذا فهم يشعرون بالانزعاج بل وبانهم مهددون . سحبت امرأة طفلتها التي بدأت تبكي وهي تشعر بخيبة امل ، لان العرض انتهى فجأة . صرخات وسباب ، ويقترب الناس بحذر وكأنهم يقتربون من حيان متوحش هارب . ولكنني اختفيت قبل ان يستطيعوا الامساك بي . في الشارع التالي بدأت ارقص من جديد .

بدأت ارقص مرة اخرى ــ لان هذا هو كل ما استطيع ان افعله ، لان الرقص قد بدا في داخلي . ومرة اخرى ، بسرعة ، تجمع النظارة حولي. انها اشد خطورة هذه المرة ، فطريق الانسحاب مسدود بجدار بيت ، وعلى اليمين وعلى اليسار مجموعة من الاجساد الحية ذات العيون الشاخصة ، مرصوصة بأحكام حولي ، وامامي عربات معدنية ترعد وتتخابط في أصداء .

رقصت وسط هذا الازدحام ، وتكلمت مع الجميع ، وتكلم الجميع معي . كل شيء يسأل سؤالا .. كل رجل .. كل حيوان .. كل عربة .. كل حجر . رقصي هو الجواب ، الجواب الوحيد الذي استطيع ان افكر فيه ، فلم اعد استطيع ان اتكلم بطريقة اخرى غير حركات أصابعي والهمهمات التي يصدرها صوتي المتنكر ، باللغة التي تبدو وكأنها جاءت من كوكب غريب .

كأنني اعطيت هذه المدينة ضميرا ، اعطيتها روحا . ولكنني لست الا متشردا تسلل اليها في الظلام ولم يره احد . وفي انجذاب قد يدوم طوال الحياة ، وقد لايدوم سوىخطوتين ، رقصت ، في وسط هذا التيار من الاجساد وانا اشعر بمذاق معاطفهم الصوفية اللاذعة بين اسناني ، وعلى لساني ملوحة وبر الكلاب التي تخرج من مياه البحر .

انا اقبل العيون ، والاذان ، والرقبات ، وحقائب الشراء ، ودبابيس القبعات ، انا ارقص الاخذ والعطاء . الاقراض والاقتراض . انا ارقص : هجوم الدائنين، وكيف يتعلقون بك ويتقافزون حولك ويسجنونكبين اذرعهم وسيقانهم . وكيف يلوحون بقبعاتهم في وجهك ويهددونك ويزمجرون . انا ارقص : كيف يعرفون كل شيء عنك ، ويقيدون في دفاترهم كل كلمة من كلماتك ، وكل حركة من حركاتك ، ويخفون هذه الدفاتر في مكان امين حتى يستطيعوا استعمالها ضدك ، انا ارقص رقصة الاسئلة : وكيف تنهككم الاسئلة بمشكلة الذنب العصية التي تثيرها . لماذا لم تظهروا وجوهكم ؟. لماذا لم تبردوا جبهتي ؟ لماذا ذهبتم قبل الاوان ؟ لماذا لم تعطوني ماطلبت ؟

انا ارقص العيون السوداء التي اثقلتها الوعود التي لم تعرف . انا ارقص .. الدفع بالتقسيط . انا ارقص كيف تدافعون عن انفسكم وكيف ترتعدون من الدائنين الخطرين . وكيف تفرقون في الحديث مع شخص وانتم موقنون انه سيفضحكم . وكيف تبكون من الاعياء بين ذراعي امرأة جاءت لكم لكي تستعيد مجوهراتها التي نسيتها في غرفتكم .

ارقص وسط البغايا في بيت الدعارة الكبير بالمدينة.ارقص، كيف باعت كل منهن نفسها للاخرى ، وكيف تفرق كل منهن في الديون للاخرى وكيف يطالبن بعضهن طوال الوقت بالدفع ، لكل واحدة طلب ، وكل واحدة ترغب في ان تكون طلباتها اكثر من ديونها ، هذا مايجعلهن باقيات على قيد الحياة ، في وسط المستعبدين هناك يتسلط عليهن توتر ضخم وعات .

ارقص كيف يسير العبد في بذلة صاحب السلطان . ويبيع احدى يديه ويشتري اثنتين « احداهما احتياطية » . الان اتشقلب بأمر متن احد الناس . رجل اضعف مني ،يرقص على ايقاع ناي معه ،يختفي الرجل الضعيف ، يهمهم بدناءة ، ينحني في وقار ، عندما يستدير يجد احدب ألثغ فيضربه بخيزرانته الصغيرة .

ارقص كيف انه لايوجد في كل مكان سوى سؤال واحد . ماذا استطيع ان افعل لك ؟ وترمش العيون ، ترفع القبعات بسرعة ، تطرق الاذان ، وتوميء الذقون ، وفي كل مكان يوجد تساؤل اخر ، ماذا اخذ مقابل هذا ؟

ارقص لحن اغنية للمرأة المجهولة التي برزت فجأة ، التي لايمكن ادراك صوتها ، تلك التي لا استطيع ان اصل اليها ابدا ، لان الاوان يكون دائما قد فات . أنها تقف معي على سطح السفينة وتعبث النسمات بثيابها ، ولكن الاوان قد فات لاتحدث معها الان ، فقد بقيت صامتا وقتا طويلا . لقد فات الاوان والقطار بدأ يتحرك . ان الوقت متأخر للعودة.

ان اعود كل هذا الطريق . لقد فات الاوان .

الشاطيء خال ، والمنزل خال . كان يجب ان اتبعها .ا ما الان فقد فات الاوان . انا لااعرف منخلال اي باب اختفت . ارقص لها تلك التي اظل دائما افقدها .

ارقص .. كيف لايستطيع احد البقاء دون الاخرين ، يسأل الجميع بعضهم البعض كلمة واحدة . أنادي... ثقب الابرة ، رباط الحذاء ، مشية في المساء فينادي كثيرون ... يا أنت : فأجيب .. انت .. انا .. انتم ارقص ، النقص الكبير الذي نعاني منه جميعا ..

ارقص للبائعين الواقفين خلف بنوكهم كمدافعين ابطال عن مواقع مهزومة . وجوههم كأنها على وشك التمزق . تتقلص اطراف انوفهم باسعار بضائعهم ولكنهم يتماسكون .. ولكنهم يتماسكون . عم نتكلم ؟ ماذا تعني ؟ فيما تستعمل هذه الارانب المكهربة ؟ أنية الطبخ التي قدت من الصخر هذه ؟ ارقص انني جائع ومحتاج للمساعدة . ولكني قبل ان استطيع ان امد يدي يحاصرني الخطر . هناك سيوف ودروع وصفارات وصيحات اضطراب . اقتحم الانشوطة في قفزة متعرجة واندفع في مجرى تيار الصلب والزجاج .

انا هنا لكم ، خذوني ان استطعتم . انا لست الا عينا وأذنا ، اشق طريقي في وسط الاذرع التي تمتد في طلبي واقفز عبر السيقان التي تسد علي طريقي . اكواب لامعة تتطاير من المنازل فوقي ، وفرشات اسنان هائلة تحك في رقبتي . فوق بعضهم ، والى جوار بعضهم ، نفس الوجوه تحدق في . هذه الاعين الزرقاء ، الاعين ... الاعين ، هذه الشوارب المفتولة ، الشوارب ... الشوارب خدودهم الحمراء منتفخة ، كم يود الانسان ان ينهش فيها . انظر ، لتكتب اوامر ، ضربة صاخبة اطار عجلة خرق . احدهم يسب وهو واقف الى جوار العجلة ، مرتديا قميص مربعات خذ هذه الرسالة، تفاحة، قلم حبر، حالا، لا تكن سخيفا وتعال معنا.تعال معنا ، أعتمد علينا تماما، نحن نقدم خدمة منتظمة ومضمونة ومعتمدة ، منتظمة ومضمونة ومعتمدة ، معقول . انتم لا تستطيعون الامساك بي حتى لو اردتم ذلك . انني اسرع ، لقد حطمت جميع الارقام القياسية في السرعة ، انتم لاتستطيعون الامساك بي ، ها انا ذا اطوقكم في وضوح تام، اي شيء الا إستفغالكم . تنبيه : احترس من الدهان على الارض هنا . لا تسر عليها. نحن نبدأ الان، تعال معنا، نبدأ ، احفر اسمك على الصيني او على الزبدة ،بروزصور العائلة القديمة . سوف نبدأ ، الكل يصعد . هناك أمكنة كثيرة ، سوف نبدأ ، رحلات دائرية ، رحلات دائرية بالطائرات ملذات ، متع، مفاجآت ، روليت ، اخر يوم . اليوم : لا يزال هناك فرصة . تعال معنا ، سوف نبدأ ... سوف نبدأ . دراما ذات ابعاد لم يسمع عنها من قبل ، استمع الى ديالوج الغيرة العظيم تقدمه عاملة اللحم العجوز . حجرة بحمام كذا شلن . لا . لا . اكيد . نعم . اكيد . لقد اشتعلت فيها النيران .

استمع الى النجوم في مشاهد الحب المتأجج ، انها مراهقة مرتبكة. وتتدفق وهي تقول « على المرء ان يقيسها بدقة ، عدها ، عدها ، عدها جميعا . كن حذرا ... لايمكن ان تثق بشيء ابدا » هل سمعت : لقد اغتصبت الفتاة ، لان المركبانطلق ، بيعت التذاكر كلها ، لانه فتح انبوب الغاز ، كتب الوزير في الجرائد ، لان القطار تأخر ، لقد كسب جميع ماكان « على الارض » فيالبوكر ، لانه كان يشعر ان جاره يهدده . أوه الخيبة المرعبة لكل انبثاقات الفكر . الى اين نذهب ؟ الى أين ؟

حمالون مهلهلون يجرون صليبا حسن الصنع . بوذا منتفخ يجلس على الصليب ، بيت على رأسه . جماعات من المساجين فروا وانتشروا في الشوارع ، السفن لنا .. السيارات لنا .. الحرية لنا .. سوف نحتفل والجميع مدعوون .

انا موجود بادراكي الخاص . ارى رجلا وامرأة على سرير يطقطق في بدروم . طلقة تدوي في الخارج . وجه مغطى بالدم ينظر خلال النافذة ويئن :

ارى شيئا من نفسي في الرجل العربي الاسمر ، الذي يجلس الى جوار النار في المنجدر ، حصانه يرعى تحت الشجر ، طفل يعوي في الخيمة ، ونسوة تتشاجر .

في أعمق الاعماق يزأر وحش في صوت معدني . اكتاف سوداء مثل الصلب تحتك بي وانا اعدو على سطح ناعم وفي قدمي زحافات جليد .

تتدحرج حبة طماطم على الارض امرأة تطاردها ، تقف ، تمد لها اصابع قابضة . عجلة تقفز الى الامام في شغف ، ساخرة من الرجل الذي فقدها ، التقطها ، تسكن في كفي ، كحيوان صغير . اقفز على سطيح العابرة التي تنساب الى جواري . ثوان معدودة واجد نفسي معلقا فوق حلبة صلبة ، واشعر انني بهلوان على الحبال ثم اشق طريقي عبر المسافرين على الممشى في سطح السفينة . اني معلق في وسطي حبات حبة في عنقود عنب ، اعين تحيط بي ، وخدود تحتك بخدي ، وانفاس ساخنة اشعر بها في اذني ، عجيزة طرية اشعر بها تضغط على عجيزتي. تقذف وسادة خلف ركبتي ، لا استطيع ان اثني ركبتي ، لا استطيع ان أثني ركبتي . ان هذا مستحيل . ان الاجسام حولي تجعلني اقف مستقيما ، ظهر جلدي واسع درعا لصدري. امرأة عجوز الى جواري تحني رأسها الرمادي فيلمع جلد رأسها من خلال شعرها الناحل ، وصدرها المترهل قد استراح على مرفقي ، استطيع ان اشعر بدقات قلبها . شاب يتباهى بربطة عنقه وكأنها علم ، ماهو الشيء الذي تحارب من اجله ؟ السؤال لم يفهم . ومضات ريتهدل العلم الى اسفل ، ويرتفع الطين من كل ناحية حوله . يرفع رامي السهام سهامه فوق اكتاف الناس ويصوب، وقد التفت حوله رؤوسهم ، يرسل سهمه صوب طائر بعيد فينثر الطائر ريشا احمر ذهبيا وتنزف الجروح من عينيه ومنقاره ، جعبة الصياد لاتفرغ وللطائر الف حياة . الطائر يهرب من الصياد وهو مفروز بالسهام .

تصل العملات في يد الكمساري المستديرة المعدنية . انها يد من حديد . تذاكر صغيرة توزعها اليد الرمادية. وتسقط مثل الثلج قصاصات بيضاء مقطوعة من ورق التذاكر . يقع طفل صغير بين كل الاقدام والسيقان ليلتقط القصاصات الصغيرة . تحطم احذية كبيرة ساقيه وتسحق اصابعه . احذية كبيرة تدوس على كتفيه وتكسر عظام ترقوته . احذية كبيرة تخطو على صدره وتحطم كتدرائية ضلوعه الهشة الضعيفة . ها هي عظمة فكه واسنانه السليمة الصغيرة ملقاة على الارض . اتلوى ، اتلوى متخلصا من زحام الجسد عبر الملابس ودفء الدم النفاذ . انهم ينبضون كنباتات مزهرة وقد التفوا في أغطية مختلفة تتماثل وجوههم التي تشبه انية الزهر الى الامام والخلف تبعا لحركة العابرة . الى أين هم ذاهبون ؟ ومن هو صاحب هذا البستان ؟ هل اختبأ في غياهب هذه النباتات المتجمعة ؟ هل يرقد على جنبه ؟ أم هل هو معلق ورأسه الى أسفل ؟ هل يمكن العثور عليه اذا فتشنا مدة أطول ؟ أهو أنت ؟ سألت كل هؤلاء الذين رقدوا على جنوبهم او وقفوا على رؤوسهم ولم يجب احد ، أعين كثيرة خلف غشاء رقيق ، كأنهم في غرفة اسدلت فيها جميع الستائر .

انا مأخوذ بالثنايا والظلال الرقيقة على البشرة .. مأخوذ بتموجات الشعر ولون البلوزات وحركات الشفاه . انا مأخوذ بحركات العضلات يفتن عنها الجلد الوردي . كل شيء يحدث تحت الجلد . كل شخص يقبع في داخل خيمة وينفخ من الداخل .. كل شخص قد عقد على نفسه جواله . يخبط على جدرانه معطيا اشارات من الداخل .

اندفع عاريا تماما .. لم يلحظ عربي احدا والناس حولي في زحام كثيف جدا ، وقماش ملابسهم يحتك بي .. حقائب اليد ، والمظلات وحقائب الاوراق الصغيرة تحتك بي ، وتدخل مرافقهم بين ضلوعي . صاح الكمساري : شخص اخر بدون ملابس ؟ اي شخص اخر لم يسترد ملابسه بعد ؟ فأندفع الى الباب ويلقي بي الى الخارج كشيء غير لازم . حياة جديدة تبدأ من خلف . واقفز وانا لا ازال أرى وجها صغيرا معكوسا في مرآة ، وجه السائق ، ثقيل ، تقاطيعه منشغلة مهتمة ، عيونه حادة ، عيون القيت عليها المسؤولية في بحار هوجاء . انني قد انتهيت من هذا .. الى اين تقصد هذه البراعم الرقيقة ؟ لقد حكمت على نفسي بهذه المدينة دخلتها كوباء طال الشوق له ، كأنهم كانوا يترقبون وقوعه

الحتمي ، انه هنا الان ، وهذا جميل . عندما تدخل المدينة فلا داعي للخوف ، ما عليك الا ان تجعل نار الحمى تأكلك . عندما تكون هنا فان افضل ما تفعله هو ان تعطي نفسك لها تماما ، وان لا تقاوم ، والا ترفض شيئا . ضربات الموسيقى الصاخبة لا بد وان تستنزف غضبهم . لا يمكن عمل شيء ، كل ما تستطيع ان تفعله هو ان تدعها تجرفك . ان تدع الصخب النفاذ ينفذ الى أعمق الحجرات فيك ، وفوق كل شيء : الصبر .. الصبر . كل شيء سوف يمر . وعلى أي حال فكل هذه الاشياء لا تعني سوى الخير . أليست هذه الاصوات مقبولة . الا تجعلك تشعر بخدر لذيذ ؟ ليس لهم غرض سوى خنق الشكوك في عقولنا قبل ان تولد ، ان كل هذه المشاهد والاحداث ذات قيمة بالغة في عملية تبليد عقولنا جميعا .. تماما مثل الاعلانات الكبرة الملصقة على جدران المنازل، والتي لا يقصد بها سوى الترويج عنا . كل شيء هنا لخدمة الصالح العام والمجتمع . مبتكرات جديدة تجعل كل شيء سارا وسهلا تقدم كل يوم . وعندنا كثير من الافكار نستخرجها لنحمي أنفسنا من اسنان الدولاب الجشع .. الدولاب الذي يمثل الخلل الذي يرقد تحت كل شيء . وعندما يكون حالنا كذلك متمتعين بالقدر الاقصى من الضمان والامان فاننا بلا شك نحب ان نسمع مكبرات الصوت تدوي في كل مكان « كل شيء في النظام ، كل شيء في منتهى النظام ، كل شيء على خير ما يرام » .

ليس هناك شيء يمكن تغييره . انا وحدي استطيع ان انقذ نفسي. الخلاص الوحيد في التيقظ والحذر المحمومين . استطيع ان أرى البعض يبحثون عن أنفسهم مع نابشي القبور او مع سارقي الصيد ذوي النظرات الملصصة . وكثيرون يبحثون عن أنفسهم في داخل مجلات سميكة « للكلمات المقطعة » نباتعها من نواصي الشوارع .و اخرون يهبون أنفسهم لمهن غريبة حالما يخلعون عنهم ملابس العمل : يعلقون تراكيب كهربائية معقدة في حجراتهم ، يتباهون بها امام اصدقائهم في المساء ، واخرون يمرون باصابعهم في مجموعة صورهم القديمة . او يصنعون تقاليع معقدة من تعليمات كتبت لهم على ورق . او يبنون في الفناء الخلفي لمنازلهم مراكب لا تصلح للابحار .

في كل مكان اواجه مصائر الرجال . ومضات، مقتطفات من حوار ، انعكاسات وجوه . وأرى امرأة تجر طفلا جموحا يريد ان يذهب الى باقي الاطفال ليلعب معهم في كومة الرمل ، ولكنه يجب ان يذهب معها ، وسوف يذهب بلا شك ، وبأدب ايضا . وأرى رجلا في أعلى عمود وقد انهمك في عمل ستارة ضخمة . ورجلا انيقا وجهه متناسق يتلذذ بسيجارة فاخرة وعمود من الدخان الازرق الخفيف يغطي وجهه ، هنا قد انهار رجل ، يرقص مستعرضا في قناة قذرة يركل بقدميه كعجلات طاحونة الهواء يدفع بساقيه الى أعلى فجأة ، وكأنه يريد ان يقيم عمد السماء . ويرتفع الزبد على فمه . عيناه جاحظتان . ينزف دمه من جرح في الجمجمة . يتساقط الدم على ملابس الفتاة النايلون . وهو يرقد هنا في وضع مهين وسط اغراب ، انه سيد انيق يضغط بذراعه على حقيبة يد صغيرة وحذاؤه يبرق ، وقد أحكمت ربطة عنقه وتدلى منديل نظيف من جيبه العلوي . أنحني على شط القناة وأشده الى اعلى . وأفتح ياقته ، أرخي أصابعه المتوترة ، أنظر في وجهه الابيض المشدوه وعيناه تحملقان في . وفي مكان ما في نفسي أشعر بشفقة جارفة نحوه ولكن على الرغم من هذا يجمدني حب استطلاع حاد وبارد . تتعلق نظراته بنظراتي سائلة الرحمة . ولكن لا استطيع ان افعل شيئا . وعلى البعد أسمع صفارة عربة الاسعاف تقترب في سرعة ، ثم تصبح صرخاتها حادة وهي تقترب مندفعة في انتصار . يرفع حاملا النقالة الرجل ويحملانه بعيدا دون ان تبدر منهما كلمة او حتى مجرد حركة غير ضرورية وكأنها لحظتهما التي طال انتظارهما لها . أتابع أنا سيري ، أشق طريقي ببطء وسط زحام ، بينما لا يزال الناس متجمعين يحدقون في بركة الدماء . الى ان يأتي كلب أسود ويلعقها . كان بياض عينيه يلمع .

الى أين أذهب ؟ الى أين أذهب في هذا الوهج القاسي حيث الشمس على ارتفاع سقالة ، كل شيء لا بد ان يدور في لولب صاعد ، يدور ويدور في تتابع لانهائي ، كل شيء لا بد ان يتحرك في هذا اللولب ثم يعود ثانية . في امكاني ان أرسم صورا على رصيف الشارع وتأتي اقدام ناس غرباء وتمحو صوري وتحملها بعيدا ، في امكاني ان اقول كلمات قد يسمع لها الناس وقد يستديرون عني ، استطيع ان اذهب في أي اتجاه اريد ، كما استطيع ان أرقد فيأتي الناس ويحملوني ويضعوني في سرير في مكان ما ثم يعودون فيضعوني بعد مدة حيث كنت ، تماما مثل آنية زهر . الى أين أتجه وسط هذه الكتل الهائلة من الحياة ، هنا لا بد للانسان من ان يكتفي بالحد الادنى . ماذا يحدث لو خرج الانسان في مثل هذه الحياة عن نطاق حده الادنى ولو بقليل ؟ لن يكفيه شيء بعد هذا .. لا منزل ولا سيارة ولا شارع ولا جواهر . خروج طفيف عن الحد الادنى : ويغني الانسان بطريقة جديدة تماما ويرقص ويرمي بأي شيء كان يتمسك به . سوف ينطق الانسان بكلمات جديدة ، سوف يكتشف انه حتى تلك اللحظة لم يكن قد تكلم مع آخر ، سوف يكتشف انه لم يعبر مطلقا عن فكرة واحدة او شعور . سوف يشع ضوء جديد من كل عين . ولكن .. كل شيء يندفع الى الامام في تدافع سخيف ممجوج محكم متراص هائل الى حد ان أعظم مجهود يبذل يذهب هباء .

الى أين أذهب ؟ الى أين أذهب في غثيان هذا الظهر ؟ يمكنني فقط ان أغوص أكثر فأكثر في هذا الامتحان لقوتي ولقدرتي على المثابرة ، هذه المحنة الدائمة التغيير المستنزفة للقوى ، الى ان يلقى بي في النهاية في أعماق المحيط الذي ينتظرني .

ما زالت الحياة تتدفق في داخلي . متمددا على ظهر ورقتي الصغيرة الطافية على الماء وقد أكلت الشمس والملح جلدي وتورم لساني، وعيناي نصف مغمضتين . كان يمكنني ان أرى المدينة تقترب مني كتهاويم الرؤية وأستطيع ان أتبين موطئا لقدمي . ثم يجرف المدينة تيار الماء .

عينا رجل بوليس مسلطتان علي ، تلمع ازراره الذهبية . وتطل الحربة من بين ثنايا معطفه . رفيع وطويل يقترب مني في خطوات قافزة في رشاقته السوداء . لقد رأى أنني لا أنتمي الى هذا المكان . يخلع قفازاته البيضاء بلا تحد ويمد اصابعه المعروفة نحوي ويسألني في غضب مكتوم :

ـ ماذا تفعل هنا ؟ أي نوع من الناس أنت ؟

ـ انا لا أحد . ليس لي اسم . انا آلة من آلات تسجيل الاهتزازات الارضية .

ـ نعم ؟ ماذا تفعل هنا ؟

ـ انا أعجب ! لماذا كل تلك الجدران العالية هناك مثلا .. منازل ؟ سيدي هل تستطيع ان تعرف اي قدر من الحقيقة في كلماتي ؟ هل صحيح انه ما عليك الا ان تضغط على زر هنا لتجد نفسك واقفا في محراب مزدان بتماثيل مختلفة ، وتضاء الشموع ، وتمسك بها ، وتجد نفسك تسير تحت القباء ، أهنا ايضا يلعبون لعبة يسمونها فرع المناضد بالقبضات ؟ ان عليك ان تجيب على أشد الاسئلة غرابة ومفاجأة ، عليك ان تقف في مرمى النار من جميع الاتجاهات حتى تستشار فتتكلم وتتكلم لتمنعهم من ان يضيقوا الخناق عليك . ولكنك لا تستطيع ان تفر منهم ، طوال الوقت ، والسائلون يحومون حولك وانت لا تستطيع ان تفر . على أي حال ربما كان الامر كله مختلفا عن ذلك . ما الذي يحدث هنا ؟

ـ أين تسكن ؟

ـ أين أسكن ؟ كم أود ان اعرف . وهل هناك مكان لاحد مثلي ؟

ـ لماذا لا تجيب على اسئلتي بطريقة طبيعية ؟ اذا لم تجب سأعتقلك . انك تتصرف بغرابة !

ماذا تعمل ؟ هل تستطيع ان تثبت شخصيتك ؟

ـ انا أعمل بلا توقف ليل نهار ، ولكن النتيجة هي فقط . بعض بللورات في جبل من النفاية .

ان عملي هو نوع من الحوار يدور بيننا دون ان نتبادل اسماء . نحن نتبادل تجاربنا .

ـ من نحن هذه ؟

ـ نحن الذين لا اسماء لنا . نكتب كلمات صغيرة على ورقات ،

ونلقي بها بعيدا للناس ليجدوها . في ضوء الفجر ندب برفق في الدروب الخلفية ومن يريدنا يفتح نافذته قليلا .

ـ جواسيس . هه . من فضلك قل لي ماذا تهدف من وراء كلامك هذا ؟

ـ اهدف ؟ انا أهدف الى لا شيء ، ليس عندي أدنى امكانية لمجرد حتى الرغبة في الوصول الى شيء .

ـ أرني اوراقك ؟ ألك الحق في البقاء هنا ؟

ـ ليتني أعرف . ولكن لم لا وأنت هنا ؟ ليس لدي اية اوراق . لمن يجب ان تصنع هذه الاوراق وانا لا أعرف من أنت ؟ .

ـ سوف أتدبر الامر بنفسي ، ان هذا الموضوع يجب ان يفحص ، اتبعني .

على اي حال فانا لا أتبع مبادىء القانون المطبق . تحملني غريزة الانطلاق على ان اقفز قفزات جانبية كقفزات التيتيل . ولانني لا املك شيئا الا نفسي فلا يمكنني الا المقامرة بها فقط . انا لا اخاف اللامحدود حتى احاول تجنب حدود السجن . ليس هناك عدل سوى هذا الذي اختاره لنفسي .

وهنا في هذه العربة السوداء اللامعة ، هل فتحوا الباب لي أنا ؟ هل امتدت الاذرع لمساعدتي في الصعود اليها ؟ أنا في داخل شيء صلب وجاف ، لين ومصقول له طنين أجوف ، احاول ان أبدو محزونا كمشيع في جنازة ، شاحب وقد عقد الحزن ما بين حاجبي ، اسرع وأسدل نقاب الحزن على وجهي ، كلما ازداد عدد المشيعين ازداد الميت شرفا . انا اندب مثلكم فخذوني معكم .

ولكن من طيات هذا السكون ومن خلال ظلال القبعات العالية النظيفة ومن تحت الحجب المتحركة تطل النظرات . أنا استطيع ان أتصور اجسادهم في داخل شرانقها السوداء . وقد ترك بعضهم مماطفهم مفتوحة قليلا فبدت على صدورهم دروع بيضاء لامعة تامة الاستدارة . هؤلاء الرجال ، انهم فرسان سود قد التصق الشعر الى صدورهم ، يلمع جلد وجوههم ، وكأنهم يستعدون لدخول مسابقة . ان عجرفتهم لا تسمح لهم بالتحدث الي ، ونظرات عيونهم تود لو استطاعت طردي بعيدا . وفجأة تفتح نافذة بينما هم يرفعونني اليها ، تلمسني يد برقة وكأنها تنبهني بشيء ، واشعر بشرارة تنبثق في داخلي وكأن اليد قد مست قلبي . وقال صوت « دعه يبقى » . واعرف انني سمعت هذا الصوت من قبل .

ويومض لي بريق عيني المرأة من تحت النقاب ووجهها لا يمكنني رؤيته . ولكن تظهر خصلة من شعرها فقط ، سوداء متوهجة ، وليست في حداد .

هناك صراع طويل دائر في الهواء بين الصوت الذي يرف كالوتر ، وبين الاعين القاسية المصفحة . وانتصرت الاعين . ووقفت السيارة . وفتح الباب امام مدخل الجبانة . تنوخ سلالم العربة تحت قدمي ، فيصطدم نعلاي بالاسفلت . وتدخل السيارة من البوابة ومن خلف الجدران يسمع حفيف الشجر . وتنبعث رائحة الاكاليل . ويقول احدهم « هل يتصورون انك لم تنح بما فيه الكفاية ؟ » .

واستند الرجال الى البوابة ينتظرون . كانوا جالسين على الارض ارجلهم ممدة ، او مرفوعة على الحائط ، وايديهم الى أعلى وكأنهم مشنوقون . وسألوني وهم يشيرون الي بأصابعهم « هل يبغي هؤلاء الناس ان يحتفظوا بحزنهم لانفسهم ؟ ألم تحصل على شيء .. حتى ولا نكلة ؟ بعض الناس يكسبون مبالغ كبيرة بهذه الطريقة . هل معك عقب سيجارة » .

وافرغت جيوبي الخاوية امامهم مرة ومرتين ، وهم يلوحون لي بأيديهم في ازدراء . ويخرج احدهم من فمه نقيقا بغيضا ، وتند عن آخر ضحكة مبحوحة .

وأجلس في وسطهم انتظر المرأة ذات النقاب . ومرة اخرى تحوم حولنا رؤيا ، ثم تتلاشى ، ثم تعاود الظهور ، رؤيا الاماني والرغبات ، ونحن نغزلها على بكرات فارغة ، بينما على القرب منا عمال يرصفون جزءا من الشارع ، يدفنون الحجارة المعروقة بعروق زرقاء ، ويتركون مطارقهم تنهال على الصخر محدثة صوتا حادا . وعمال آخرون يغرسون اشجارا صغيرة ذات اوراق نادرة ، في الحفر التي حفرت لها الى جوار الطوار .

وبدا جرس يدق داخل الفناء ، تأتي الرياح حاملة اصداء الترانيم، وينهال التراب على جذور الاشجار المغروسة ، تدكها احذية موحلة ضخمة ، وتسوى الارض بالمعاول وابور دك ضخم بدأ يتحرك ، رجل يردد عفريتة رمادية باهته منهمك في العمل بين عجلاته ، واخيرا وبعد مدة طويلة انطلق دوي الماكينة ، يندفع دخان اسود ، وتدور العجلات الضخمة ببطء في مناورة طويلة للامام وللخلف . ثم يسير فوق طبقة الاحجار الموضوعة حديثا ، فتتداخل قطع الحجارة بعضها في بعض لتكون سطحا مستويا . ويستريح الرجال مستندين الى معاولهم : اذرعهم متكئة على عصي المعاول ، واقدامهم مرتكزة على رأس الجزء المعدني ، وقد تدلت قبضات ايديهم القذرة .

وتبدأ الاجسام السود في العودة عبر ممشى الجبانة . يسيرون متلاصقين في مجاميع كبيرة ، تتراقص الشمس فوقهم من خلال اوراق الاشجار وكأنها كرات ذهبية صغيرة . انها هناك : عرفتها من مشيتها ، ممسكة زهرة بيضاء . يرف رداؤها ونقابها مع الهواء وهي تخب الى الامام ، مثل بحر ، مثل ليل ، تسير عبر سود اخضر ارجواني من الشجيرات . انهم عائدون الى منازلهم سيرا على الاقدام . فلا عربات في انتظارهم .

وانا أقف الى جوارهم على حافة قضبان السكة الحديد تحت « تعريشة » المحطة أقف الى جوارها تماما ، ولكنها تستدير ولا تعرني التفاتا . تتحكم في الجماعة كلها امرأة كهلة تحمل كرشها المترهل المنحدر الى الامام . يسندها الرجال السود من ذراعيها ومن تحت عجيزتها . ينادونها « يا اماه » ويلاطفونها ويربتون على كتفها واحدا بعد الاخر ويحملون يدها ويناولونها كل منهم للاخر . حتى انا انحشر في حركة اذرعهم واقول « يا اماه » وامسك باليد . والمس بين اصابعي قماش قفازها المبتل بالدموع .

ولكن هذا خطأ . كل شيء خطأ . انا لا انتمي هنا ، ويسير امامي ظهران اسودان وكأنهما مصراعا باب يغلق . وذراعان مدببان تنفرسان في جنبي . على اي حال فعربة الترولي تتقدم محدثة صوتا مجلجلا ، وتتوقف في رجة كبيرة فتتخابط صفائح الاعلانات على زجاج النوافذ من الداخل . ليت المرأة التي اقف من اجلها هنا تمنحني مجرد نظرة ، ليتها تبدي فقط انها تعرف شيئا عني . ولكنها تصعد الى السيارة ، مع الآخرين ، بدون ان تنظر الي . ترتقي السيارة بخفة وهي لا تزال ممسكة بالزهرة على صدرها ، وانادي « انظري لي » ولكن الباب يغلق خلفها وهو يئز باحتقار . ويتحرك الاسود الباهت والاسود اللامع للحظات خلف النوافذ ثم تنطلق السيارة في سرعة خاطفة ، وتهتز الاسلاك العلوية المعلقة في الهواء محدثة ضجة عالية .

كان الرجال الواقفون الى قرب الجدار يرقبون سير الاحداث بلا مبالاة . وهم الان يتبادلون التعازي . يسأل احدهم الاخر : هل حصلت على شيء ؟ يجب ان تكون اكثر مرونة من هذا او تظهر كل اسلحتك . وثالث لا يقول شيئا . يكشر عن انيابه . ويدفع بسبابته في خرق اصطنعه بضم قبضة يده الاخرى ، يدفع بأصبعه الى داخل الخرق ويخرجه ويضحك : هذا هو ما تريده .

القاهرة

ترجمة : علاء الديب